نقاط أولية حول الاغتراب القسري في الرواية العربية

فريدة النقاش

انشغلنا طويلاً بالبحث عن ملامح بطل قومي جديد في الرواية العربية، وغالباً ما وجدناه في الابطال التاريخيين وحدهم، واسترحنا إلى ذلك. وحين أفقنا بعد غفلة طويلة على الاخفاقات أخذنا نطرح السؤال من جديد.. وأتخيلني وجدت مشروعاً أولياً لإجابة.. ذلك البطل - المشروع - المرجو يلوح لي مبتسماً من خلف ضنوف القهر والعسف، وتحت السياط يتكون في حمى الصراع مثقفاً.. رمزاً لطليعته.. ومغترباً... رغم أنفه، مدفوعاً بالأحرى إلى اغتراب من نوع جديد، وزائداً عن الحاجة، اغترابه قسري وناتج عن وعيه حين يصبح الوعي شمعة وسلاحاً، يقودانه معاً إلى اعمق انتماء وأخصبه.

تتحدد اشكال هذا الاغتراب في السجون والتعذيب. في الملاحقة البوليسية والحصار الخانق. في المنافي والأقبية والصحارى. في الموت - الاستشهاد، في الموت الفعلي نيابة عن الآخرين. في الهجرة خارج الوطن وإلى داخل النفس. في آلاف الأقنعة من الاسماء المستعارة والمخابىء. وفي العزلة الإجبارية عن المنبع، عن الجماهير العريضة. وبطلنا زائد عن الحاجة بسبب هذه الغربة الأخيرة بالذات.

ان الملامح المتباينة التي تكمل بعضها بعضاً في أكثر من رواية هامة على امتداد بلدان الوطن العربي تعني ان الموضوع يشغل كتّابنا، وأنه أكثر من ذلك قد اخذ يعمل في الوعي العربي بصورة اقتضت التعبير عنه فنياً. وانه قد وجد لدينا هؤلاء الكتاب الذين يسخرون - بحرية كبيرة من فكرة التناقض بين «الخلق والوعي» ذلك ان معظمهم قد خرج هو نفسه من اتون التجربة المرة حتى أصبح هذا السؤال نفسه باطلاً... وأيضاً لأن وعيهم فعال. كان الروائيون الجدد الذين قدموا مشروع البطل وعالجوا قضيته أطرافاً في الصراع الواقعي بدرجات متفاوتة. فتراجعت صورة الكاتب الذي يعيش في «برجه العاجي» المعقم ضد صخب الحياة، بل إنها اصبحت مثيرة - للسخرية. انغمس الكتّاب الجدد في واقعهم حتى أننا نستشف خلف بعض أشكال التعبير اللاواقعية ارتكازاً صلباً إلى عالم واقعي، يبدو هو نفسه مختل التكوين.. ثمة شيء خطأ في صلب بنائه.

أمامي روايات من الجزائر شمالاً إلى العراق شرقاً. «اللاز» للطاهروطار. «نجمة أغسطس» «وتلك الرائحة» لصنع الله ابراهيم. «الزيني بركات» لجمال الغيطاني. «شرق المتوسط» لعبد الرحمن منيف، «الكرنك» لنجيب محفوظ، «نجران تحت الصفر» ليحيى يخلف، «الحرب في بر مصر» ليوسف القعيد، «انهم يأتون من الخلف» لبراء الخطيب، «السكن في الأدوار العليا» لرفعت السعيد.

في «اللاز» نحن في قلب العالم المحتدم للحرب الوطنية ضد الاستعمار، في الجبال والمدن حيث تتجلى فضائل الشعب ومثالبه، وهو يصنع مصيره ويسعى إلى حريته في مواجهة الغاصبين. و«اللاز» هو التجسيد الحي العفوي للفضائل والمثالب فيه بذور كل الحياة.. هكذا يقول عنه أبوه «زيدان». «زيدان» هو البطل المعنى، واللاز البطل الممكن.. الذي يولد دائماً في العواصف.. زيدان مناضل شيوعي تعلم في ثورة الجزائر وثورات الشعوب وأعطاها حياته، اللاز ابن خطيئته. ابن بالصدفة، يحارب في صفوف الثورة كأبله.. حين تقام الجسور بينه وبين أبيه، حين يتعرف على زيدان في خضم العمل الثوري يكون «زيدان» على شفا الذبح الفعلي، وهو يذبح لأنه يرفض ان يتنصل من عقيدته ولا من حزبه.

«فماذا يهم أحمر كنت أم أبيض، ما دمت تحارب العدو، مثلما يحاربه الناس وأكثر»..

«في تلك الرائحة» ثم «نجمة أغسطس» تطل علينا صورة بطل واقعي يموت تحت التعذيب، ورواية فنان يتعرض أيضاً للتعذيب، يصمد ويحكي. في تلك «الرائحة» رسائل «شهدي عطية الشافعي»، وفي «نجمة أغسطس» صورته، تجاعيد وجهه.

شهادته واستشهاده.. ولكن نجمة أغسطس ببنائها المعماري الضخم، وهي تبقي على مكونات العالم النفسي الذي خرجت منه تلك الرائحة، تخلق أفقاً موضوعياً أكثر رحابة، حيث الوجود المحدق للسد العالي في مقابل التجربة الحية التي علّمت على الروح والجسد علامات لا تنسى ولا تحصى للسجن والموت.

في «الزيني بركات» لجمال الغيطاني ثمة عصر تاريخي وعمر معاش أحكم الكاتب التشابه بينهما، تشابه يظل خلف الأحداث والشخصيات، خلف المحن والمواجهات، دافقاً خفياً، يطل علينا، دائماً يطل في لحظات العناء لا لينتزعنا من الواقع الفعلي وانما ليقول لنا: ثمة زمن شبيه، شبيه حتى في بعض التفصيلات. يصل التشابه إلى حد التطابق حين ينطلق الكاتب من التقدم التكنيكي الهائل من عصره الحي، ذلك التقدم المخيف في وسائل التجسس ومراقبة الناس، وحين يتم ذلك في عصر تحددت فيه الأماكن والمطامح، من قاهرة المماليك الصغيرة ذلك العصر هو العصر التاريخي، اما التقدم المخيف فهو سمة عصر آخر.. عصر يسود فيه «البصاصون» ويرفعون رايات مختلفة لدولتهم على رؤوس الأشهاد وفي كل مكان. يخرج «سعيد الجهيني» بطل هذا العالم- البطل الذي يخصنا- يخرج من اعماق هذا الجب الجهنمي وقد مسته النار التي يشعلها شيخ في التسعين «هجر بيته وانطلق إلى الريف يشعل فيه ناراً حامية، يستنفر الشعب». في هذه الرواية اكثر من أية رواية اخرى، تتبدى لنا ملامح البناء القمعي المحكم، محكم بطريقة رياضية مجددة.. تبدو عبثية لشدة تجردها حيث.. «يسري شيء خفي، شعور لا يبين في الأرواح والجماد، رهبة خفية من الزيني، لا تبدو على وجه بشر، وانما ترى بعيون خفية..».

في «شرق المتوسط» التي يصدِّرها عبد الرحمن منيف بمقتطفات من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولا يحدد مدناً أو دولاً.. يجعل قضية بطله «رجب» المناضل من أجل الناس، الشاعر الذي يأكله الهزال ويصيبه العمى ويموت- قضية للجميع. فهل يا ترى لو حدد مكاناً بعينه في هذه البقعة الشاسعة من العالم التي هي امتنا لقال أحد: لا، ان ذلك يحدث بالضبط في مكان آخر.. ولو ان أحداً قال هذا فلن يستطيع أبداً ان ينفي حدوثه في المكان الآخر... إن الإدانة دامغة... رجب المنتمي الفنان ينهار تحت التعذيب- فيخرج من السجن بعد أن يوقع. نأخذ عليه انه بدأ منهاراً، ولكنه يعود لينتمي من جديد... فيهرع إليه العمى والموت. في «شرق المتوسط» سوف نجد «هادي» الثوري المتكامل يشير وجوده وموته تماماً كما تشير عودة «رجب» أي انتماؤه الثاني إلى المنابع الخفية التي لا تجف ولا تموت لصلابة المناضلين.

تقدم «الكرنك» لنجيب محفوظ محاكمة عابرة وشهادة في حق ثورة يوليو وضدها، يقول الراوي لنفسه «حقاً إن حياتنا تزخر بالآلام والسلبيات ولكنها في جملتها ليست إلا النفايات الضرورية التي يلفظها البناء الضخم في شموخه وانها يجب ألا تعمينا عن العظمة في تولدها وامتدادها. هل عرفنا ما كان يعانيه ساكن الحارة في القاهرة عندما كان صلاح الدين يحقق انتصاره الحاسم على الصليبيين؟» تفتح السجون والمعتقلات أبوابها لشباب ثورة يوليو الناصريين ولأصدقائهم الشيوعيين، ويموت حلمي حمادة تحت التعذيب في حجرة التحقيق، وتغتصب زينب دياب ويخرج من كل هذا وبسببه بطل جديد: منير أحمد يبحث عن الطريق.

في «نجران تحت الصفر» ليحيى يخلف، يخرج «اليامي» من حارة العبيد ثائراً «يجب ان نناضل من أجل العبيد والفقراء» ضد المهانة.. الجوع وخصي الشباب وقطع الأيدي وسلطة السيوف. وعلى هذا الطريق اقتادوه إلى ساحة الاعدام التي نصبت في الشارع ليتفرج العبيد على المشهد «لقد أصاب نصل السيف أعلى الكتف.. صرخ اليامي من أعماق جمجمته بصوت مثل صرير الأسنان وبدا مثل ديك ذبحوا منه الوريد فهاجت حلاوة روحه وانطلق يبحث عن عراء...» الوحدة والأسى ومباهج الحياة دفعت كلها برفيقه «أبو شنان» إلى معسكر الأعداء.. تعجز روح المناضل القديم عن استيعاب الخيانة والبلادة.. ان المباهج كلها سراب وسأم.. يعود «أبو شنان» إلى رفاقه وحيث تشتعل الحرب ضد جيوش امام اليمن.. «فمتى من شدة الألم والقهر تنبجس الأرض وتزلزل زلزالها..».

«.. إنهم يأتون من الخلف» العمل الأول لصاحبه «براء الخطيب» يقف فيه العالم على أهبة القيامة في انتظار النّوة في مدينة الاسكندرية، حيث يلتقي كل الأبطال الفقراء في خمارة «الربح البسيط» وأمثالنا لا يخسرون كثيراً إذا جاء عاليها واطيها «على نفس المقهى يلتقي الأصدقاء الذين يسميهم المؤلف بأسمائهم الحقيقية.. ابراهيم فتحي وآخرين، فلا يلاحقهم العسس، القهر محدق في كل مكان.. يقول الودع لمحاسن الأم «يقتل الأول يا زهراء وحيداً بين اصدقائه ويرتوي من دمه حاكم ظالم».. ثم «يموت الثاني يا امرأة ميتة الفقراء في الحروب: تفصل الرأس عن الجسد ويموت- يا زهراء- دون رشفة ماء..» يحدث ذلك في الحروب ولكن الحرب الأهلية الصامتة محتدمة أيضاً.. الفقر والغنى يتواجهان بضراوة..

هناك عالمان لا ثالث لهما يقدمها المؤلف في صيغة تخصه تماماً وتشير إلى جدته: «اين يممت وجهك تجد السيف يرتد إلى النحر لتموت معلقاً في بحار الفقراء وتصير الطريق طريقين: طريقاً للحياة وطريقاً للموت، وتحمل من الاسماء اسمين: اسماً للحياة واسماً للموت، ويكون الزمان زمانين، زمناً لغروب الشمس وزمناً لشروقها، ويكون الوطن وطنين: وطناً للفقراء، ووطناً للسماسرة والخصيان، بينهما يولد جنينان: جنين للقهر وجنين للخلاص».. على هذا الطريق الواضح كالشمس يسير أبطاله الذين لا تقعدهم خمارة «الربح البسيط» وتتلاشى ملامحهم الخاصة ليبرز الموقف.. منشورات.. عسس.. تخشيبة.. أسياخ الحديد التي تكوي مؤخرة الطلاب.. شهداء.. ودموع.. والغربة ككل غربة هنا على طريق

الانتماء.

يطرح «يوسف القعيد» في روايته «الحرب في بر مصر» موضوعاً كبيراً يخرج منه «مصري» بطل بالغ البساطة، يموت في الحرب موتاً فعلياً نيابة عن طبقة تفسخت وفاحت رائحة عجزها وبلادتها.. هؤلاء الذين مهنتهم الفراغ.. يعلنون هذه الحرب، اخر الحروب، ويرسلون «بمصري» بديلاً لابن العمدة ليموت ميتة ساذجة حتى قبل ان تكتمل كلية رؤيته عن العالم.. كان عليه أن يحارب دفاعاً عن وطن لا يملك منه شيئاً وهو يحمل اسماً غير اسمه... اسم ابن العمدة.. وهو أصلاً لا يجوز تجنيده لأنه ولد ابيه الوحيد.. ولكنه يخوض الحرب ببسالة الذين كانوا يتصورون انها حربهم هم، ويموت.. يموت وهو لا يستحق حتى أن يعلن اسمه كشهيد وأن تحصل اسرته المعدمة على معاشه.. من قبل كانت الأرض التي وزعها الاصلاح الزراعي على فلاحي قريته قد عادت إلى كبار الملاك.. ومن قبل كان «مصري» النابغة قد عجز عن اتمام تعليمه وكان الخفير- ابوه قد سقط في الفاقة وعجز عن توفير حد الكفاف لأسرة كبيرة العدد «أحسست بالفراغ والاحتياج»-يعود الصديق مرافقاً لجثمان «مصري».. مشغولاً بوسائل اثبات هويته الحقيقية. لا سبيل إلى رد الاعتبار.. لا سبيل.. كل شيء مخطط وجاهز من أجل ان يموت مصري نيابة عن الآخرين.. غريباً مفعماً حماسة وتعاسة. لا يدري كيف سوف تحسم الحرب الأخرى،يقول صديقه «كنت اتمنى.. آه.. وماذا تملك في تلك الأيام غير التمني؟ كنت أتمنى لو أن الحرب ما تزال قائمة، لكي احضر نقطة من دمي، آخر دم دافع عن تراب وادي النيل أختم بها آخر الفصل الخاص بي في هذه الرواية، ذلك أن عصر الحروب انتهى..». وليبدأ المحقق رحلة البحث من جديد- لتبدأ دورة جديدة.. ومثلما كان «زيدان» اللاز يحارب حربه المزدوجة.. مات «مصري» تلك الميتة الغريبة المزدوجة.

رفعت السعيد مؤرخ وليس- روائياً، تأتي تجربته الروائية الأولى تسجيلاً لفترة هامة من تاريخه الشخصي النضالي.. تقدم «السكن في الأدوار العليا» مناضلاً هارباً يحمل اسماً غير اسمه، يتوقع في كل لحظة هجوم العسس على مسكنه السري في حي شعبي فقير. «أنا.. تعرفونني منذ البداية. لست مدحت، مدحت مجرد اسم سري. اسماء كثيرة ناداني بها الناس: شكري، حسن، صفوت، صلاح..».

اي اسم ثم قصة تنسجها، تحكيها لنفسك ثم للناس، ترددها حتى تصدقها، وبها تتعامل وتجبر أيضاً على أن تتعايش مع شخص جديد، يولد، يتكون، تتحدد معالمه، ثم يقيم في داخلك، ليس أمامك سوى أن تطيعه، وأن تتحرك، وتتصرف وفق هواه.

أليس غريباً ان تكون بأكثر من اسم؟ اسمك في الحزب، واسمك في المكان الذي تعيش فيه، وهناك ايضاً ذلك الشيء المنزوي تماماً في اعماق بئر سلم الذاكرة.. اسمك الحقيقي.. اي حقيقة، أي اسم».

مدحت يتوقع دقات معادية في كل لحظة، يعيش اسيراً لذلك الإدراك المزدوج.. هويته الحقيقية والجديدة.. علاقاته القديمة ودفء العالم الشعبي الذي يفصح عن نفسه ويعطيه مودته بسخاء- يخرج البطل من اسم إلى اسم ومن سكن بعيد إلى آخر.. والمخبر يسلم جاره عازف الموسيقى العذب إلى الشرطة. «أحسست بكعب حذائه في خلفي» وتلك الوجوه الكالحة التي تتكاثر وتلاحق المنتمين إلى الغربة أو السجون المظلمة والموت» وجه مثلث اتذكره جيداً، شارب باهت،عينا ذئب مريض اعرفه، لكن اين رأيته».

فكيف إذن تتبدى صورة الواقع في هذه الأعمال؟.

«أقبل المطوعون، وطلبة المعهد الديني، وأعضاء جمعية الأمر بالمعروف، وحرس الأمير، والخويان، وباعة المقلق، وسيارات الونيت، وعدد من مرتزقة «أبي طالب».. اقبل واحد من الزيود، أقبل الغامدي شيخ مشايخ التجار وسمية عبده السديري سابقاً وبائعة الفجل حالياً.

أقبل أحمد شاهي، الطبيب الباكستاني في سيارة الاسعاف، وأطلت من «الدريشة» «غالية» ابنة السميري قائد قوات الامام... الخ».

هذه بداية «نجران تحت الصفر». لكأن يحيى يخلف الفلسطيني الجنسية، العربي التجربة والغربة والعذاب، يقدم في الساحة التي نصب فيها احتفال اعدام «اللامي» الذي اتصل بالجمهوريين في اليمن.. لكأنه يقدم لنا صورة لتشكيله الواقع العربي.. هناك عبيد لم يعتقوا.. وعلى حدود نفس المدينة عمال في صناعة البترول الضخمة ينتظمون في الاحزاب والنقابات ويناضلون تحت رايات التقدم.. وحين يلقي عباجة بحمل القامة الذي أتى به من السجن يفزع الصغار الجائعون حين يعثرون على «يد» آدمي قطعت من الرسغ لأنه سرق قطعة لحم، والطائرات المقاتلة النفاثة قادمة من مصر يقودها طيارون شبان تقصف نفس هذا السجن والمعسكر المجاور له بمهارة ويعودون.. يعودون إلى المطارات الحديثة وإلى حيث رجال آخرين يجيدون بنفس المهارة استخدام الرادار والصواريخ..

وفي «شرق المتوسط» تتجاور وتتعايش كل أشكال الإنتاج لتفرز خليطاً من الأشكال والعلاقات الاجتماعية التي تختلف بهذا القدر او ذاك من بلد لآخر حتى أننا نجد سمة هذا الاغتراب القسري وكأنها سمة تحلق في الفضاء القومي دون ان يرهقنا البحث، وان كنا هنا نتناول بعض النصوص الهامة فقط فإن التفتيش الدقيق سوف يدلنا- ولا بد- على مدى عمق هذه الظاهرة في الانتاج الروائي والقصصي الجديد.. لأنها ببساطة واحدة من الظواهر الأساسية في واقعنا العربي المعاصر.

على روابي هذه التشكيلة ترتفع من المحيط إلى الخليج رايات الدولة القومية الشمولية أو- الدولة- الثيوقراطية. وهي في كل الحالات بوليسية تحمل تحت معطفها الكبير الذي يتسع باتساع الأمة كل رموزها التي يدخل بطلنا معها في علاقات مجردة أو

فعلية- العسس- شيوخ القبيلة- الأمراء- مكاتب البوليس السري وآلة القهر التي تتشكل من كل هذا او بعضه.

وأياً ما كانت صورة القهر، أي شكل الأداة- تلك التي تمارسه فقد استوى الأمر وملكتها جميعاً روح القبيلة والمشايخ والآباء، وتعلمت طقوس القمع الدموي البارد. وتكتسب آلة القهر في بعض الأحيان شكلاً ميتافيزيقياً علوياً.. تبدو قادرة على كل شيء.. لها قوة إلّه بحيث تبدو القوانين التي تحكم حياة الناس وتسير علاقاتهم غامضة مغلفة أبداً بهذا الطابع الميتافيزيقي.. ففي العلاقة المذبذبة التي تتسم بعنف مكتوم بين القمة والسفح بين حواري العبيد الذين لم يعتقوا وقصور الأمراء والنظارات السوداء للخبراء الأجانب لا يتجلى قانونها الوحشي إلا لهؤلاء الأبطال- الطلائع المشتعلين بهذا الوعي الإيجابي الخلاق، الساعين إلى المثل الأعلى، تلاحقهم روح القبيلة الاقطاعية البورجوازية الخليط، وتشدهم إلى حظيرتها حظيرة الاخفاق والسكون.. والابتسامات اللرجة.. ابتسم الرجل ذو الكرش الكبير- انه انما- حين جر «رجب» شرق المتوسط للتوقيع.. للسقوط، وفي «أسوان» حيث ذهب راوي «نجمة أغسطس» ليشهد مجد البناء في ميدان السد العالي الفسيح بان الظل الطويل للمئذنة ومكتب المباحث.. ويسعى الرابضون على القمة إلى إقرار مودة زائفة مموهة. مضمونها هو الاستغلال والقهر، إنها لعبة الدولة القومية الظافرة، لكي تحل الصراع على طريقتها بمودة الكلمات بين القمة والقاعدة.. ويدرك الجميع وبعد فوات الأوان انها لعبة تمسك فيها القمة بكل الأطراف، وتركبها حالة من الشراسة لتحريك العرائس التي ترفض الامتثال، ومرة أخرى من «نجران تحت الصفر».

«- انهم يقصفون تحشدات الامام.

- انهم يفتحون لنا الطريق».

نعم ان القوات الظافرة للقمة التي طالما نادت بتمثيلها لكل الناس.. كل الناس بجيدة كاملة.. تسير على السراط تخشى الانجذاب الى هنا او هناك خوفاً من الله ومن حريق الجحيم.. انهم يفتحون الطريق للفقراء لكي يفروا من السجن الرهيب.. سجن المذلة القومية والاجتماعية، ولكن دولة البورجوازية الصغيرة الظافرة.. التي تصب نيرانها هي الأخرى على طرفي السراط تتلفت حولها وهي تفتح الطريق- نعم وهي تفتح الطريق- لتقمع بكل قوة كل صوت آخر غير صوتها وكل نفس يشي بصعود المنتجين إلى القمة.. صاح شهدي عطية الشافعي في ساحة المحكمة.. «كيف يمكن أن أقف ضد نظام يبني السد العالي».. كان يسعى إلى خلق المودة على أرض الندية لكنه يموت تحت ضربات السياط، ويموت «مصري» نائياً عنها في ارض سيناء..

حين يكون قد فقد كل شيء، وبقيت له الآن اغلال أبيه، أغلال التعاسة والغربة المقيمة لأهله وفقراء قريته.

يسقط «مصري» شهيداً بعد أن حط العدو الصهيوني رحاله من جديد في المدينة، هذه المدينة بالذات كانت قد تحررت من الوجود الأجنبي ليكتم أنفاسها الوجود الثقيل للتجار، ولم يدخل العدو الصهيوني إذن للفراغ. كان العالم قد أعد وتهيأ له حتى في ظل الدولة الناصرية «خروجاً على مبادئها» التي جاهدت لتجتث أسس علاقات التابع مع الأجانب والمحتلين.. وتبين أن صورة التابع هذه قد تشكلت في كل مكان من «شرق المتوسط» تحت أقنعة كثيرة، تبقي جميعاً على الجسور مع المركز.. والحاصل ان الامبريالية تركت بصمات التشوه العميق في مجمل البناء، وبرزت مع الوقت وجوه سمراء لوحتها شمس صحارينا الجميلة لتتصدر الصورة بديلاً عن الظالمين السابقين، وتشدد قبضتها بنفس أدواتهم على رقاب الخلق. وكان أن اخفقت البورجوازية الصغيرة، وكان عليها ان تسفر عن هويتها وهي تقتص من الاخفاق.. فتسارع عند كل أزمة عميقة إلى قهر البديل الصاعد لها.

والعالم الروائي لهؤلاء الكتاب- الذين خرج معظمهم من السجن أو نجا صدفة من الموت تحت التعذيب- هو صورة هذه الاخفاقات.. وليد الهزيمة، وهؤلاء الكتاب، الأبناء الطيبون للبورجوازية الصغيرة، التي مارست هي نفسها كل الفضائح.. انما يحدوهم طموح التجاوز.. تجاوز التخلف والتعاسة، ويزقهم الهم الثقيل للبورجوازي الصغير الذي يريد أن يجمع كل شيء في سلة واحدة.. كل شيء.. فواقع انتمائهم الاجتماعي مضافاً إليه خبرتهم ومعرفتهم بحياة هذه المجتمعات وهؤلاء الأبطال، معرفة نقدية غالباً، جعلتهم يقدمون صورة الواقع الساكن والبطل وحده متحرك.. إلى الأمام إلى التجاوز الذي يؤرقه.. أين يمور الصراع. كيف يتشكل المزاج الجماهيري العام.. كيف يتشكل المزاج للأطراف المتناقضة المتصارعة.. كيف هي النبوءة.. كيف تلوح آفاق التجاوز؟. لا أحد يقول لنا ذلك.. «اللامي» جمهوري.. و«مشعان» نقابي.. و«شهدي» شيوعي.. و«مصري» مثالي طموح نقي.. الخ.

حينما اخفقت الطموحات الاشتراكية للدولة القومية، جرت معها إلى حظيرة الاخفاق كل شيء.. وعاد الشعر العربي إلى مجد الغناء والرثاء.. وكان علينا ان نقر بضرورة الانتظار حتى تؤتي أكلها، مؤامرات البلاط والتآكل الداخلي والتلفيق والعجز المتصل عن حماية النفس. حينئذ تتقطع الخيوط المتداخلة وتبين الدنيا كما ينبغي.. لقد فشلنا وما من أحد يستطيع أن يبرىء ساحته وينزوي بعيداً.. وها نحن نسجل بعد أن عجزنا عن رؤية البذرة الخبيثة للخراب في زمن التوهج القصير..

نجران من جديد..

«ينقسم الرجل المتزمل في ثيابك إلى اقسام اربعة.

تأتي ريتا من الشمال ويأتي المستر من الجنوب. ويرفع السياف حديده الصقيل، وتهجم أشجار النخيل على المدينة..

قضية التجاوز سوف يحسمها النضال.. النضال في الواقع الفعلي.. ويكفي هذه الروايات شرفاً انها تقدم صورة البطل

المناضل. فكيف يبدو؟.

لا يصلح البطل هنا لكي يتصدر شاشة السينما العربية في فيلم تنتجه إحدى المؤسسات «المؤممة» والمملوكة للدولة في بلد عربي.. لا لأنه يحمل آثار السياط على ظهره ولأنه غير موفور الصحة، وانما لأن بزوغه وانتشاره وامكانية ان يصبح بطلاً قومياً يقتدى.. يفزع القائمين على الأمر وعلى السينما.

في «الزيني بركات» يقود الفقراء شيخ جاوز التسعين، ويخرج «سعيد الجهيني» من السجن معتلاً مهدوداً، ويتربى «زيدان» اللاز في احضان العذاب والغربة.. واقعية عالمهم جميعاً حارة بكل تبدياتها بدءاً من نيران الحروب، الى القطع الفعلي للأيدي - وللاغتصاب والموت، من ضجيج التوربينات في السد العالي إلى كمائن صعدة.. إلى ريف مصر التعيس وحواريها المظلمة.. من كل هذه الأمكنة الواقعية التي لا تحمل أبداً شبهة المتاهة.. يخرج بطلنا من «شرق المتوسط» متهماً.. له دائماً روح فارس وضمير نبي يؤمن بكل الناس، يحمل في اعطافه اشجان الحساسية الجديدة في الواقع العربي. وليس من قبيل المصادفة أن ينشأ هذا التشابه الحميم الذي يتكشف لنا. لا يقع البطل الجديد أسير البحث عن القوانين التي تسيّر قوى الطبيعة والمجتمع بل هو يكاد يمسك بها جميعاً، ويحمل هنا امكانيات كل بطل فاعل لتغيير الواقع العربي، لدفعه من حالة السكون والفوضى الداخلية، يسعى إلى التجاوز إلى اقرار نعيم حقيقي على الأرض وفي اكتشافه لحقيقة انسانيته يجد نفسه منغمساً حتى النخاع في الدفاع الحق عن انسانية كل الناس.. لا يستطيع ان يحب اعداءه كرومانتيكي حالم.. انه يتشكل بالحقد على الطغاة والظالمين.. وينفلت وحده لا كإنسان استثنائي - إنما كوعي - من شروط التشكيلة الحياتية الهجين ويخلق تلك المسافة العقلانية بين جموح روحه والواقع الموضوعي، بين الأمة والعالم هل يمكن ان يقف ضد نظام يبني السد العالي.

هو أيضاً يجيد الاستشهاد.. ولكنه لا يسعى إليه وفي حين ينتمي طبقياً وروحياً إلى البورجوازية الصغيرة ناقداً لها فهو يسعى إلى عقلنة الجموح الرومانسي الفوضوي لدى البطل البورجوازي الصغير الذي يحتج باشكال متباينة فردية - في الأساس - على العالم الذي يفلت فيه.. وهو يدرك أن فرديته لا تقود إلا الى الطرق المسدودة. انت قوي بالناس. اما وحدك فانت ضعيف.. وان التجاوز الفردي للآلام لا يقود إلا الى حل خاص الى غربة اختيارية.. كان «رجب» قد سقط وخرج من السجن تحت الآلام.. وخرج من الوطن ليسترد صحته التي ازدادت سوءاً بعد سقوطه.. ولكنه عاد إلى الانتماء من جديد الخرط من جديد في العمل. ومثل «بوشنان» الذي كاد ان يطفىء الشموع كلها في حارة العبيد.. فما من حرارة تضيء ولو شمعة صغيرة في أفق العالم المرجو إلا وانطفأت. «موت اللامي» «انهيار بوشنان» ولكنه يعود ليضيء هو نفسه من جديد مثل رجب ويغتسل في بحار الفقر ورمال العاصفة اثر نوبة اغتراب روحي عميق.. ان عقله يتفتح على بقايا المرارة والأحزان ولكنه يعرف إلى اين يتوجه وهل سواك يا مشعان يستطيع ان يشعل الأفكار. عودة إلى الانتماء إلى الإلهام.. لقد اختبر كل منهم عمق علاقته باصله البورجوازي الصغير بطموحه الفردي الخاص.. ثم عاد بيقين اعمق عاد ليعاني بفرح الآلام الاختيارية للتعميد في نيران الاكتشاف الاخير نيران الوعي النضالي العالي.. يصبح هذا البطل «بطلاً» اغنية في حواري الفقراء والعبيد. وخبر شهدي من قبل «بين اوربا والجحيم فارتضى الجحيم واستقبل الليمان أول نزيل من نوعه قيدت السلاسل الحديدية قدميه بامر الملك». ها قد تجاوز حالة الفطام القاسي. وطريق الخلاص الفردي ليس مرفوضاً فحسب لأنه خيانة للاختيار الأصلي ولكن لأنه لا يفضي روحياً إلا إلى قبض الريح. انه هنا.. ولدى عودته يستعيد وشائجه السرية بالمنبع وتتفجر القوى الهائلة لروحه.. هو لا يستند فحسب إلى الوعي والأفكار بل أيضاً وبنفس القوة الى الضمير إلى الشهوة العاصفة لتغيير العالم إلى اختيار قلبه.

وما زالت لم تتبلور بعد ملاحم البطل الآخر الذي يأتي من اعماق الشعب انتماء واختياراً في آن، شاهراً سيف النضال والوعي. وسواء انتظرنا حتى يولد ذلك الكاتب الذي يأتي من أعماق البروليتاريا معبراً عنها مقدماً بطلها. أو استطاع روائيونا ان يفعلوا، فإن هذا البطل ما زال قابعاً في رحم الأيام القادمة ويا لنا من محظوظين.. فهذا البطل المشروع الذي نحبه رغم انه لا يزال يحمل في اعماقه الحنين القديم لمحدودية العالم البورجوازي وامنه المفتعل سوف يخلي الطريق قسراً إلى البطل الآخر الذي يتشكل الآن في اعماق العملية التاريخية فاحلام البورجوازية الصغيرة التي انطفأ شهاب مجدها بسرعة تتكسر على صخرة الواقع القاسي.. وتكشف بفزع وذهول انها سوف تتجرد بسرعة من وسائل انتاجها الصغيرة.. من مقومات امنها الخاص. وها هي تنحدر قسراً إلى مصاف الكادحين الكثيري العدد. وتتحلل رغم انفها من الأحلام الجميلة والوشائج وهناك في قلب هذه العملية القاسية سوف يستكمل البطل الثوري ملامحه..

وحينئذ سوف نميز فيه بوضوح تلك العلامات والملامح الفريدة لبطل قومي وليس مشروعاً - لأن رحلة المشروع الطويلة التي صاحبت عمليات التغيير الاجتماعي سوف تولد بطبيعة جدليتها ذاتها ملامح جديدة تماماً.

تقول قرنفلة للراوي في الكرنك «.. لعلك لا تدري انه شاب شجاع ذو كبرياء وان مثله يكون عرضه للشر أكثر من غيره».. وبالفعل كان حلمي حمادة عرضة لقسوة سادية افضت إلى موته.. فهل يا ترى يبقى بطلنا في المستقبل وهو يملك هذا القلب الجسور والروح العالية عرضة أيضاً لهذه القسوة؟ ام انه سوف يخرج من الاعماق نداً لسيد القبيلة قادراً بالدرجة نفسها على تدميره؟ قابضاً بكلتا يديه على شرعية تمثيله للأمة؟ تصبح بطولته بلا منازع حين تنزاح غمامة التشوش... هل يا ترى

كانت الوجوه السمراء البديلة للخواجات والأغوات والعسكر الاجانب... هي الممثل الحق لنا.. كان ذلك صحيحاً حين اختلطت الأمور واخذنا نجني ثمر الاخفاقات ومن بين ما نجنيه تلك الآثار البارزة للسياط والدماء على جسد البطل - المشروع.. البطل المشروع الذي ولد ومات في زمن التشييد والمد والانتصار وما زال علينا ان نلوك علقم الاخفاق حتى يولد على النسق الأخلاقي نفسه بطل آخر.. يتجاوز احلام البطل القديم.

ولسوف تتسع المساحة جداً بينه وبين الناس العاديين رغم انه يبرز منهم... من نبضهم ومن وعيهم ومزاجهم... لن يأتي احادي البعد مناضلاً في النقابة، أو عضواً في حزب تقدمي أو محارباً ضد الاحتلال فقط.. كما هو الحال في رواياتنا... فطالما بقي هكذا سوف تعلم عليه دائماً آثار التعذيب. تعلم بعمق حتى اننا نتساءل هل يا ترى ولد بها؟ سوف يخلع البطل القومي الجديد عمامة الشيخ في حين تحمل روحه البصمات العميقة للمضمون الإنساني للدين - سوف يلقي من على ظهره بعبء التراث القومي القديم ولكنه يستخلص منه كل ما يضيء العصر يبث هو فيه روح العصر ورؤى المستقبل يقطع باختصار هذه الخطوات الشاسعة الى الأبطال الشعبيين المختلقين من الخيال والواقع ولكنه سوف يحارب بسيفه هو لا سيف بن ذي يزن ولا سيف أبيه.. سيف الوعي الثوري العميق الثاقب الذي لا ينكسر ابداً.. ولا يكف حامله عن إلقاء الأسئلة الواضحة وهو يستأنس قوى الطبيعة في الأرض والسماء ويتخلق حراً في حماها.

يولد انكسار البطل - المشروع امام قوة القهر العاتية بطلاً من نوع جديد... هو دائماً كامن في ركن من أركان الرواية ليتفرج مذعوراً أو يلبس قناع الرجل الاكاديمي الخالص ما دام الفعل يفضي إلى الموت والغربة، عبر محمود دياب عن البطل - الضد وخلقه خلقا في واحدة من أفضل القصص القصيرة التي عرفتها اللغة العربية « الزائدون عن الحاجة » « والا فالمرض أو الجنون هو مصيري » انه يقبع هناك في شرفته الصغيرة.. خائفاً بلا اسم لا ينتمي ولا يبتسم... تولد الدولة القبيلة نار الجحيم - في داخله اغتراباً من نوع خاص... مواتاً نهائياً لقدرته على الحب لقدرته على اي تواصل مع العالم، وقد سبق لبطله الطفل ان طرد من ملاعب طفولته في مدينة الاسماعيلية التي ولد فيها وكبر معها، طردته قوة التجار وهم يسلبون المدينة ليلاً من براءتها من علاقتها البسيطة القديمة... ففي « أحزان مدينة » تولي وإلى الأبد أيام الطفولة.. أيام التواصل..

يعيش البطل - الضد في منفى اختياري نقيضاً لكل المنافي الواقعية الأخرى - المنفى الذي يتنفسه مع الهواء في التعقيم الذاتي الذي اجراه لنفسه... يرى نفسه محظوظاً فقد توفر له الحد الأدنى من الهواء الذي يكفيه كي لا يموت خنقاً.. في الحلم يقرأ شعر المتنبي وحين يفيق على صورة المخبر المعمم الذي يقبع في مواجهة شرفته يلوذ بلزوميات ابي العلاء... وهو مستعد دائماً لأن يردد الشعار الذي حصن به نفسه ضد وطأة الدولة - رئيسه - امه - وظيفته « أنا بريء كل البراءة مخلص لعملي » تلك هي آلة القهر المركبة التي تهدد وحسب بالخراب المعنوي والدمار الفعلي في السجون والمنافي وحسب.. وانما كذلك بقطع الأرزاق والتضور جوعاً كزائد عن الحاجة وفي مواجهة الشرطي المقيم أمام داره أو في داخله يفتقد هذا المثقف الهاوي كل فعالية.

يبقى السؤال: هل جددت هذه الروايات.. هل اضافت في ميدان الشكل شيئاً ذا بال.. هل جاء الزوائيون العرب ليرسوا اسس رواية جديدة في زمن يتراجع فيه هذا الشكل تراجعاً ملحوظاً؟ من بين هذه الروايات تشكل « اللاز » للطاهروطار، بداية راسخة لرواية مكتوبة بالعربية في الجزائر وتقدم « الزيني بركات » تجربة في اللغة.. وعلى نفس الطريق يتقدم « براء الخطيب » وان كان تقدمه في اتجاه الغنائية ويلتقط « يوسف القعيد » موضوعاً كبيراً ويقدمه كمادة خام ويقطع يحيى يخلف أرضاً مجهولة في الواقع العربي وعلى مسافة شاسعة من هذه الأعمال جميعاً تقف « نجمة أغسطس ».. بمفردها تجربة في البناء تخرج وحدها من محدودية عالم الأشخاص والمواقف والحواري والقرى لتستند بالقوة نفسها إلى حقيقة العالم المادي الصلب الذي يصل « بصنع الله ابراهيم » إلى شكل تركيبي متقدم يفتح الطريق لخطوات جديدة.

دار الآداب تقدم

مؤلفات جبرا ابراهيم جبرا

- صيادون في شارع ضيق
- البحث عن وليد مسعود
- السفينة
- صراخ في ليل طويل
- الصخب والعنف (مترجمة عن فوكنر)